

دكتور محمود محمد زفزوف

وكيل كلية الشريعة والدراسات الإسلامية
بجامعة قطر

الأحكام والأحكام

يطلب من
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية - حابطة
تليفون ٩٣٧٤٧٠

الطبعة الأولى

١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م

جميع الحقوق محفوظة

دار البصائر للطباعة
٢٢ شارع سامي - ميدان الوطن
القاهرة - تليفون ٣٠٥٥٦

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الاسلام والاستشراق (١)

- تمهيد :

ان مما لا جدال فيه ان الاستشراق له اثر عظيم في العالم الغربي وفي العالم الاسلامي على السواء وان اختلفت ردود الافعال على كلا الجانبين . ولا يكاد المرء في عالمنا العربي المعاصر يجد مجلة أو صحيفة أو كتابا الا وفيها ذكر أو اشارة الى شيء عن الاستشراق أو يمت اليه بصلة قريبة أو بعيدة . وهذا أمر ليس بمستغرب وذلك لأن الاستشراق في حقيقة الأمر كان ولا يزال جزءا لا يتجزأ من قضية الصراع الحضاري بين العالم الاسلامي والعالم الغربي ، بل يمكن أن نذهب الى أبعد من ذلك ونقول ان الاستشراق يمثل الخلفية الفكرية لهذا الصراع . ولهذا فلا يجوز التقليل من شأنه بالنظر اليه على انه قضية منفصلة عن باقي دوائر هذا الصراع الحضاري . فقد كان للاستشراق من غير شك أكبر الأثر في صياغة التصورات الأوروبية عن الاسلام وفي تشكيل مواقف الغرب ازاء الاسلام على مدى قرون عديدة .

والاستشراق قضية تتناقض حولها الآراء في عالمنا العربي الاسلامي ، فهناك من يؤيده ويتحمس له الى أقصى حد وهناك من يرفضه جملة وتفصيلا ويلعن كل مشتغل به بوصفه عدوا لدودا للاسلام والمسلمين .

والواقع الذي لا يمكن انكاره هو ان الاستشراق له تأثيراته القوية في الفكر الاسلامي الحديث ايجابا أو سلبا أردنا أم لم نرد .

(١) محاضرة ألقى ضمن محاضرات الموسم الثقافي للمحاكم الشرعية والشئون الدينية بدولة قطر في ١٤٠٣/٣/٤ هـ الموافق ١٩٨٢/١٢/١٩ م .

ولهذا فاننا لا نستطيع ان نتجاهله او نكتفى بمجرد رفضه وكأننا بذلك قد قمنا بحل المشكلة ، اننا لو فعلنا ذلك لكنا كالنعامة التى تدفن رأسها فى الرمال . ولهذا فانه ليس هناك بديل عن مواجهة المشكلة وطرحها على بساط البحث ودراستها واستخلاص النتائج وطرح الحلول واقتراح البدائل .

ومن اجل ذلك أردت ان احدثكم اليوم عن الاستشراق وابعاده فى موضوعية هادئة او فى هدوء موضوعى . ولن نستطيع بطبيعة الحال فى محاضرة كهذه ان نوفى هذا الموضوع حقه من البحث ونستوفى الحديث عن كل جوانبه ، ولكن حسبنا ان نلقى بعض الضوء على بعض النقاط الهامة ، لعل ذلك يكون حافزا لنا على التفكير والتأمل فى هذا الموضوع . ونبدأ أولا بالتقاء نظرة تاريخية على الحركة الاستشراقية وتطورها . وقد تبدو مثل هذه النظرة التاريخية لأول وهله شيئا معادا ومكررا ، ولكن لا بد لنا على الرغم من ذلك من الامساك بثتى الخيوط التى تساعدنا على الالمام بجوانب الموضوع ، فضلا عن أننا من خلال هذه النظرة سنتعرف عن قرب على تطور الدراسات الاسلامية لدى المستشرقين .

٢ - تاريخ الاستشراق وتطوره :

ترجع البدايات الأولى للاستشراق لدى بعض الباحثين الى مطلع القرن الحادى عشر ويرى المستشرق الالمانى المعاصر رودى بارت أن بداية الدراسات العربية والاسلامية فى أوروبا تعود الى القرن الثانى عشر . وقد جعل نجيب العقيقى كتابه عن المستشرقين فى اجزائه الثلاثة سجلا للاستشراق على مدى ألف عام .

وعلى اية حال فان الدافع لهذه البدايات المبكرة للاستشراق كان يتمثل فى ذلك الصراع الذى دار بين العالمين الاسلامى والمسيحى فى الأندلس وصقلية ، كما دفعت الحروب الصليبية بصفة خاصة الى

اشتغال الأوروبيين بتعاليم الاسلام وعاداته . وقد نشط اللاهوتيون المسيحيون في ذلك الوقت ضد الاسلام وزعموا فيما زعموا أن الاسلام قوة خبيثة شريرة وان محمدا ليس الا صنما أو اله قبيحة أو شيطانا ، وغذت الأساطير الشعبية ولخرافات خيال الكتاب اللاتينيين . ولم يكن الهدف بطبيعة الحال هو عرض صورة موضوعية عن الاسلام ، فقد كان هذا أبعد ما يكون عن أذهان المؤلفين في ذلك الزمان . وقد اعترف أحد ممثليهم وهو « جيبير دو نوجنت » **Guibert de Nogent** بأنه لا يعتمد في كتاباته عن الاسلام على أية مصادر مكتوبة ، وأشار فقط الى آراء العامة وأنه لا يوجد لديه أية وسيلة للتمييز بين الخطأ والصواب ، ثم قال مبررا كتاباته غير العلمية « لا جناح على المرء اذا ذكر بالسوء من يفوق خبثه كل سوء يمكن ان يتصوره المرء » ، وقد أطلق « ساوذن » **Southern** على هذه الفترة في كتابه « نظرة الغرب الى الاسلام في القرون الوسطى » عنوان : عصر الجهالة .

وفي مقابل تلك الصورة البغيضة للاسلام كانت هناك جهود أخرى للوصول الى قدر من الموضوعية في مجال العلوم العربية مثل الفلسفة والطب والعلوم الطبيعية . يقول « مكسيم رودنسون » عن تلك الفترة : « ولا يصادف المرء موقفا موضوعيا الا في مجال مختلف تماما لا يمت الى الدين الاسلامي الا بصلة بعيدة وأعنى العلم بأوسع معانيه » .

وقد أخطأ « رودنسون » هنا في جعله العلم لا يمت الى الاسلام الا بصلة بعيدة . فقد كان الاسلام في واقع الأمر وراء كل انجاز علمي حققه المسلمون في مختلف المجالات .

وبدأ من عام ١١٣٠ كان العلماء المسيحيون في أوروبا يعملون جاهدين على ترجمة الكتب العربية في الفلسفة والعلوم ، وكان لرئيس اساقفة طليطلة الفضل في اخراج ترجمات مبكرة لبعض الكتب العلمية

العربية بعد الاقتناع بأن العرب يملكون مفاتيح قدر عظيم من تراث العالم الكلاسيكى . وكانت هناك فى القرن الثانى عشر ايضا بعض المحاولات للتعرف على الاسلام بقدر من الموضوعية ولكن مع الهدف الواضح والمعلن وهو محاربة هذه التعاليم الاسلامية اللاحادية . ومن أجل ذلك قام بطرس الموقر (ت ١١٥٦) رئيس رهبان كلونى بتشكيل جماعة من المترجمين فى اسبانيا يعملون كفريق واحد من أجل الحصول على معرفة علمية موضوعية عن الدين الاسلامى . وفى تلك الفترة ظهرت أول ترجمة للقرآن عام ١١٤٣ قام بها الانجليزى « روبرت أوف كيتون » Robert of Ketton .

وهكذا نجد أنه قد كان هناك فى هذه الفترة المبكرة للاستشراق اتجاهان مختلفان فيما يتعلق بالأهداف والمواقف ازاء الاسلام . أما لاتجاه الأول فقد كان اتجاها لاهوتيا منطرفا فى جدله العميق ، ناظرا الى الاسلام من خلال ضباب كثيف من الخرافات والأساطير الشعبية . أما الاتجاه الثانى فقد كان نسبيا بالمقارنة الى الاتجاه الأول أقرب الى الموضوعية والعلمية ، ونظر الى الاسلام بوصفه مهد العلوم الطبيعية والطب والفلسفة . ولكن الاتجاه الخرافى ظل حيا حتى القرن السابع عشر وما بعده . ولا يزال هذا الاتجاه للأسف حيا فى العصر الحاضر فى كتابات بعض المستشرقين عن الاسلام ونبيه .

وأحد المسيحيين المستشرقين القلائل الذين كانوا يتهنون ازاء الاسلام موقفا أقرب الى الاعتدال كان فريدريك الثانى حاكم صقلية الذى أصبح امبراطورا حوالى عام ١٢٢٠م وكان يعرف العربية ويتشبه بالعرب فى لباسهم وعاداتهم ويتحمس للفلسفة والعلوم العربية . وقد كان نصيب هذا الامبراطور أن طرده البابا « جريجورى التاسع » Gregory IX من الكنيسة عام ١٢٣٩ . وقد كانت إحدى التهم التى وجهت اليه هى ما يبيده من مظاهر الود تجاه الاسلام .

والأمر المهم بالنسبة لتطور الاستشراق كان الاقتناع بضرورة تعلم لغات المسلمين إذا أريد لمحاولات تنصير المسلمين أن تؤتي ثمارها بنجاح . ومن بين من تبني هذا الرأي الذى فرض نفسه بالتدريج — « روجر بيكون » Roger Bacon « ورايموند لل » Raimund Lull وفند صادق مجمع فيينا الكنسى عام ١٣١٢م على أفكار بيكون ولل بشأن تعلم اللغات الإسلامية واللغة العربية على وجه الخصوص . وقد تم تنفيذ ذلك فى جامعات باريس وبولونيا وأكسفورد وسلمنكا .

وقد ساعد على تقدم الدراسات الاستشرافية فى نهاية العصر الوسيط تلك الصلات السياسية والدبلوماسية مع الدولة العثمانية التى اتسعت رقعتها حينذاك . وقد كان للروابط الاقتصادية لكل من أسبانيا وإيطاليا مع كل من تركيا وسوريا ومصر أثر كبير فى دفع حركة الدراسات الاستشرافية .

وفى القرن السادس عشر وما بعده أدت النزعة الإنسانية فى عصر النهضة الأوروبية الى دراسات أكثر موضوعية من ذى قبل ، ومن ناحية أخرى سادت البابوية الرومانية دراسة لغات الشرق من أجل مصلحة التبشير . وفى عام ١٥٣٩ تم انشاء أول كرسى للغة العربية فى « الكوليج دى فرانس » فى باريس . وشغل هذا الكرسى « جيوم بوسستل » Guillaume Postel (ت ١٥٨١) الذى يعد أول المستشرقين الحقيقيين . وقد أسهم كثيرا فى إثراء دراسة اللغات والشعوب الشرقية فى أوروبا ، وجمع فى الوقت نفسه وهو فى الشرق مجموعة هامة من المخطوطات . وقد سار على نهجه تلميذه « جوزيف اسكاليجر » Joseph Scaliger (ت ١٦٠٩) وفى عام ١٥٨٦ استفادت اللغة العربية فى أوروبا من المطابع التى أسسها الكاردينال دوق تسكانيا الكثير .

وفى القرن السابع عشر بدأ المستشرقون فى جمع المخطوطات

الاسلامية ، وانشئت كراسى للغة العربية فى أماكن مختلفة ، ومما هو جدير بالفكر أن قرار انشاء كرسى اللغة العربية فى جامعة كامبردج عام ١٦٣٦ قد نص صراحة على خدمة هدفين أحدهما تجارى والآخر تبشيرى . فقد جاء فى خطاب للمراجع الأكاديمية المسئولة فى جامعة كامبردج بتاريخ ٩ مايو ١٦٣٦ الى مؤسسى هذا الكرسى ما يأتى : « ونحن ندرك أننا لا نهدف من هذا العمل الى الاقتراب من الأدب الجيد بتعريض جانب كبير من المعرفة للنور بدلا من احتباسه فى نطاق هذه اللغة التى نسمى لتعليمها ، ولكننا نهدف أيضا الى تقديم خدمة نافعة الى الملك والدولة عن طريق تجارتنا مع الأقطار الشرقية ، والى تمجيد الله بتوسيع حدود الكنيسة والدعوة الى الديانة المسيحية بين هؤلاء الذين يعيشون الآن فى الظلمات » . وفى القرن السابع عشر أيضا ظهرت مؤلفات عامة عن الاسلام والحضارة الاسلامية والأدب الاسلامى . وبدلا من الآراء التى تبناها اللاهوتيون حتى ذلك الوقت عن محمد بوصفه بأنه شيطان ، وعن القرآن بوصفه بأنه مزيج من اللغو الباطل ظهرت آراء أخرى أقل عنفا ، وذلك على سبيل المثال لدى « بيير بايل » Pierre Bayle فى قاموسه التاريخى والنقدى « روتردام ١٦٩٧ » ، أو لدى « سيمون أوكلى » ١٦٧٨ — ١٧٢٠ فى كتابه تاريخ السراسنة الى العرب المسلمين . فالسرد التاريخى فى هذا الكتاب يعد نسبيا غير متحيز ، ولكن وصف المؤلف للنبي ﷺ بأنه « رجل خبيث جدا ومكرر » وإن ما كان يبيديه من شمائل طيبة مجرد أمر ظاهرى يخفى حقيقة نفسه التى كان يحكمها الطموح والطمع « هذا الوصف أسقط المؤلف مرة ثانية فى بؤرة المواقف اللاهوتية السابقة .

وقد كانت اول محاولة علمية جادة للتعرف على الاسلام على يد « هادريان ريلاند » Hadrian Reland أستاذ اللغات الشرقية فى جامعة أوترخت بهولندا . فقد صدر له كتاب باللغة اللاتينية عن

الاسلام عام ١٧٠٥م بعنوان « الديانة المحمدية » في جزعين عرض في اولهما العقيدة الاسلامية معتمدا على مصادر بالعربية واللاتينية . وفي الجزء الثانى قام بتصحيح الآراء الغربية التى كانت سائدة حينذاك عن تعاليم الاسلام . وقد اثار الكتاب اهتماما عظيما لدرجة أدت الى اشارة الشبهات حول المؤلف بانهامه بأنه يريد القيام بعمل دعائى للاسلام ، فى حين أنه لم يكن يقصد الا الى الوصول الى فهم الدين الاسلامى فهما صحيحا ممهدا بذلك السبيل الى محاربته من جانب المسيحية بطريقة افضل من ذى قبل .

ولكن الكنيسة الكاثوليكية ادرجت الكتاب فى قائمة الكتب المحرم تداولها . وعلى الرغم من ذلك ترجم الكتاب الى اللغات الانجليزية والفرنسية والالمانية والهولندية والأسبانية . ويشير ريلاند فى مقدمة الكتاب الى ما تتعرض له كل الأديان باستمرار من جانب خصومها ، اما بعدم فهمها أو برميها بكل سوء بطريقة تنبئ عن قصد خبيث . وقد تعرض الاسلام الى مثل ذلك من جانب خصومه مثلما تعرضت الأديان الأخرى . ويقول ريلاند « ان المرء يصح له حقا أن يبحث عن الحقيقة حيثما كانت » . ولهذا يريد أن يعرض الاسلام لا كما يظهر من خلال ضباب الجهل وخبت الناس ، وانما كما يدرس حقيقة فى مساجد المسلمين ومدارسهم . فلم يحدث أن تعرض دين من الأديان فى هذا العالم فى أى عصر من العصور الى مثل ما تعرض له الاسلام من جانب خصومه من الاحتقار والتشويه والوصف بكل أوصافه السوء . وقد وصل الأمر الى حد أن من يريد أن يصف نظرية من النظريات بوصف مشين يصفها بأنها نظرية محمدية كما لو كان الأمر أنه لا يوجد فى تعاليم محمد شيء صحيح وأن كل ما فيها فاسد . واذا أبدى أحد رغبة صادقة فى التعرف على الاسلام لا تقدم له الا الكتب المضادة الخبيثة والمليئة بالضلالات . ويضيف « ريلاند » قائلا : ينبغى على المرء بدلا من ذلك أن يتعلم اللغة العربية وأن يسمع

محمدًا نفسه وهو يتحدث في لغته ، كما ينبغي على المرء أن يقتنى الكتب العربية وأن يرى بعينه هو وليس بغيره الآخرين ، وحينئذ سيتضح له أن المسلمين ليسوا مجانيين كما نظن . فقد أعطى الله العقل لكل الناس . وقد كان في رأيي دائما أن ذلك الدين الذى انتشر انتشارا بعيدا فى آسيا وأفريقيا ، وفى أوروبا أيضا ليس ديننا ماجنا أو ديننا سخيّا كما يتخيل كثير من المسيحيين .

وبعد ذلك يقول ريلاند : صحيح أن الدين الإسلامى دين سىء جدا وضار بالمسيحية الى حد بعيد . ولكن أليس من حق المرء لهذا السبب أن يبحثه ؟ ألا ينبغي للمرء أن يكتشف أعماق الشيطان وحيله ؟ ان الأخرى هو أن يسعى المرء للتعرف عليه حقيقة لكي يحاربه بطريقة أكثر أمانا وأشد قوة .

وقد تكون عبارات « ريلاند » الأخيرة هذه مجرد ذر للرماد فى العيون حماية لنفسه من بطش الكنيسة التى لم تقتنع بهذه المبررات فحزمت تداول الكتاب لأنها لم تكن تريد للحقيقة أن ترى النور حتى لا يطلع عليها جمهور الناس .

وفى نهاية القرن الثامن عشر وبالتحديد فى عام ١٧٩٥ أنشئت فى باريس مدرسة اللغات الشرقية الحية وبدأت حركة الاستشراق فى فرنسا تتخذ طابعاً علمياً على يد « سلفستر دوساسى » Silvestre de Sacy (ت ١٨٣٨) الذى أصبح امام المستشرقين الأوروبيين فى عصره .

وفى عام ١٧٧٩ ظهر فى إنجلترا مفهوم « مستشرق » Orientalist وسرعان ما ظهر بعد ذلك فى فرنسا عام ١٧٩٩ . وأدرج مفهوم « الاستشراق » Orientalism فى قاموس الأكاديمية الفرنسية عام ١٨٣٨ .

وهناك كثير من المستشرقين — وبوجه خاص في ألمانيا والنمسا — بدأوا طريقهم في مجال الاستشراق مترجمين أو قناصل لدولهم في الشرق الأوسط : مثل « جوزيف فون هلمر برجشتال » (ت ١٨٥٦) مؤسس أول مجلة استشرافية متخصصة في أوروبا وهي مجلة (ينباع الشرق) التي صدرت في « فيينا » من عام ١٨٠٩ الى عام ١٨١٨ . وفي ذلك الوقت بدأ المستشرقون في مختلف بلدان أوروبا وأمريكا بإنشاء جمعيات لمنابعة الدراسات الاستشرافية . فقد تأسست أولا الجمعية الآسيوية في باريس عام ١٨٢٢ ثم الجمعية الملكية الآسيوية في بريطانيا وإيرلندا عام ١٨٢٣ ، والجمعية الشرقية الأمريكية ١٨٤٢ والجمعية الشرقية الألمانية عام ١٨٤٥ . .

وسرعان ما نشطت هذه الجمعيات في إصدار المجلات والمطبوعات المختلفة . وفي نهاية القرن التاسع عشر أصبحت الدراسات الإسلامية نخصا قائما برأسه داخل الحركة الاستشرافية العامة . وقد كان كثير من علماء الإسلاميات والعربية في ذلك الوقت — مثل نولدكه وجولد تسيهر وفلهاوزن — مشهورين في الوقت نفسه بوصفهم علماء في الساميات على وجه العموم أو متخصصين في الدراسات العبرية أو في دراسة الكتاب المقدس .

وفي عام ١٨٩٥ ظهرت في باريس مجلة تمنح اهتمامها بصفة خاصة للعالم الإسلامي وهي مجلة الإسلام ، وقد خلفتها في عام ١٩٠٦ مجلة العالم الإسلامي التي صدرت عن البعثة العلمية الفرنسية في المغرب ، وقد تحولات بعد ذلك الى مجلة الدراسات الإسلامية .

وفي عام ١٩١٠ ظهرت مجلة « الإسلام » Der Islam الألمانية ، وفي « بطرسبرج » بروسيا ظهرت مجلة « عالم الإسلام » Mir Islama عام ١٩١٢ ولكنها لم تعمر الا وقتا قصيرا . وفي بريطانيا ظهرت مجلة

« العالم الاسلامى » عام ١٩١١ على يد سمويل زويمر (ت ١٩٥٢)
الذى كان رئيس المبشرين فى الشرق الأوسط .

وقد كان للمد الاستعمارى فى العالم الاسلامى دوره فى استخدام
فئة من المستشرقين للمساعدة على تحقيق الاهداف الاستعمارية فى
بلاد المسلمين عن طريق دراساتهم الموجهة الى خدمة الاستعمار .
وسنعود الى الحديث عن هذه النقطة مرة أخرى ان شاء الله .

وقد بقيت هنا فى الحديث عن تاريخ الاستشراق وتطوره نقطة
أخرى تتعلق بدور المستشرقين اليهود فى اطار الحركة الاستشراقية
والأسباب التى دفعتهم الى الاستشراق .

ان من الصعب الحصول على اجابة صريحة على هذه النقطة .
فقد أغفلت المراجع التى تتحدث عن الاستشراق وتطوره — أغفلت
الحديث عن هذا الجانب . ونعتقد أن السبب فى ذلك يرجع الى أن
المستشرقين اليهود قد استطاعوا أن يكتفوا أنفسهم ليصبحوا
عنصرا أساسيا فى اطار الحركة الاستشراقية الأوروبية المسيحية .
فقد دخلوا الميدان بوصفهم الأوروبي لا بوصفهم اليهودى . وقد
استطاع جولد تسيهر فى عصره — وهو يهودى مجرى — أن يصبح
زعيم الاسلاميات فى أوروبا ، ولا زالت كتبه حتى اليوم تحظى
بالتقدير العظيم والاحترام الفائق من كافة فئات المستشرقين . وهكذا
لم يرد لليهود أن يعملوا داخل الحركة الاستشراقية بوصفهم مستشرقين
يهود حتى لا يعزلوا أنفسهم وبالتالي يقل تأثيرهم . ولهذا عملوا
بوصفهم مستشرقين أوروبيين وبذلك كسبوا مرتين : كسبوا أولا فرض
أنفسهم على الحركة الاستشراقية كلها ، وكسبوا ثانيا تحقيق أهدافهم
فى النيل من الاسلام ، وهى أهداف تلتقى مع أهداف غالبية المستشرقين
المسيحيين .

ويشير المرحوم الأستاذ الدكتور محمد البهى فى كتابه « الفكر

الإسلامي الحديث » (ص ٥٣٤) الى ملاحظة لبعض الباحثين حول تفسير أسباب اقبال اليهود على الاستشراق .

وتتلخص هذه الملاحظة في أنهم اقبلوا على الاستشراق لأسباب دينية تتمثل في محاولة اضعاف الإسلام والتشكيك في قيمه باثبات فضل اليهودية عليه بادعاء أن اليهودية في نظرهم هي مصدر الإسلام الأول .
ولأسباب سياسية تتصل بخدمة الصهيونية فكرة أولا ثم دولة ثانيا . ويرى الدكتور البهي أن وجهة النظر هذه على الرغم من أنها لا تعتمد على مصدر مكتوب يؤيدها ، فان الظروف العامة والظواهر المترادفة في كتابات هؤلاء المستشرقين تعزز وجهة النظر هذه وتضفي عليها بعض خصائص الاستنتاج العلمي .

ونحن في الواقع لسنا في حاجة الى دليل لاثبات كراهية اليهود للإسلام ، وذلك لأن هذه الكراهية قد ظهرت واضحة كالحشمس منذ ظهور الإسلام . وقد أكد القرآن ذلك في قوله تعالى : « **لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودُ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا** » (١) . وقد ظل اليهود طوال تاريخهم يتحينون كل فرصة متاحة ليكيدوا للإسلام والمسلمين . وقد وجدوا في مجال الاستشراق بابا ينفثون منه سمومهم ضد الإسلام والمسلمين ، فدخلوا هذا المجال مستخفين تحت رداء العلم ، كما وجدوا في الصهيونية بابا آخر يفرضون منه سيطرتهم على العرب المسلمين .

٣ - مواقف المستشرقين :

وبعد هذه النظرة السريعة على تاريخ الاستشراق وتطوره ننتقل الى الحديث عن نقطة أخرى وهي مواقف المستشرقين . وهذا الموضوع يعد موضوعا حساسا للغاية ، إذ أن المواقف الاستشراقية تشتمل

(١) المائدة : ٨٢ .

من غير شك على بعض الجوانب الايجابية التى يجب أن تذكر لهم ، كما تتمثل فى المواقف الاستشراقية طائفة أخرى من الجوانب السلبية التى يجب أن تسجل عليهم . وحتى نكون موضوعيين فانه لا بد لنا من الإشارة الى ما لهم من ايجابيات والتنبيه على ما لديهم من سلبيات . بلا ضير على المرء اذا اعترف بما لعدوه من مزايا ، اذ أن ذلك ربما يكون حافزا لنا على النهوض والاستعداد من جديد ، وقبول التحدى الذى تفرضه علينا — نحن المسلمين — ظروف العصر .

أما هذه الايجابيات التى سنذكر طرفا منها هنا فأود أن أنبه الى أن بعضها يعد امورا تخص المستشرقين وتتصل بأسلوب عملهم ومدى ترابطهم ، والقصد من ذكرها هو مجرد الاعتبار بها فقط ، وبعضها الآخر أمور تتصل بانتاجهم العلمى الذى يعود بعضه بالفائدة على الدارسين العرب ، وان كان المستشرقون قد قصدوا به فى المقام الاول خدمة انفسهم ، ولكنهم مع ذلك لم يحجبوه عن غيرهم .

(١) الجوانب الايجابية :

وتتمثل الجوانب الايجابية للمستشرقين فى الأمور التالية :

١ — يخدم المستشرقون أهدافهم التى وضعوها لأنفسهم باخلاص تام لهذه الأهداف وتфан الى أقصى حد وبكل الوسائل . وعندما أراد المستشرق الهولندى سنوك هورجرونيه أن يكتب كتابا عن مكة لم يثنه عن عزمه لدراسة مكة على الطبيعة أنه مسيحي لا يجوز له أن يدخل مكة ، فانتحل اسما اسلاميا هو عبد الغفار ، وازار مكة عام ١٨٨٤ وأقام هناك مدة خمسة أشهر ، وكان يجيد العربية كأحد أبنائها . وبعد هذه الرحلة كتب عن مكة كتابين أولهما : الحج الى مكة ، وثانيهما : مكة وجغرافيتها فى القرن التاسع عشر — فى جزعين — وصف فيه مكة وصفا دقيقا شاملا مع خرائط عديدة . والمستشرقون بصفة عامة

لديهم صبر عجيب ونادر في البحث والدرس واحاطة تامة بالعديد من اللغات القديمة والحديثة . وقد أشار الشيخ مصطفى عبد الرازق الى « الاعجاب بصبرهم ونشاطهم وسعة اطلاعهم وحسن طريقتهم » ،

وقال الشيخ أمين الخولى بعد حضوره مؤتمر المستشرقين لدولى الخامس والعشرين « لقد قدمت السيدة كراتشكوفسكى بحثا عن نواذر مخطوطات انقرآن فى القرن السادس عشر الميلادى . ونى اشك فى أن الكثيرين من أئمة المسلمين يعرفون شيئا عن هذه المخطوطات . وأظن أن هذه مسألة لا يمكن التساهل فى تقديرها » .

٢ — هناك ترابط تام بين جماعات المستشرقين فى مختلف البلدان وتنسيق مستمر وتعاون وتكامل فى مجالات الدراسات العربية والاسلامية . ففنوات الاتصال بينهم قائمة ومستمرة عن طريق المؤتمرات المنتظمة والدوريات والحوليات والمجلات والنشرات والطبوعات المختلفة . وقد بلغ عدد المؤتمرات الدولية للمستشرقين منذ عام ١٨٧٣ حتى عام ١٩٦٨ ثلاثين مؤتمرا . وهذا عدا المؤتمرات والندوات واللقاءات الاقليمية . وتضم المؤتمرات الدولية مئات العلماء ، فهنا مؤتمرا «أكسفورد» كان يضم ٩٠٠ عالم من ٢٥ دولة و ٨٥ جامعة و ٦٩ جمعية علمية . ومجموعات العمل فى كل مؤتمر تبلغ أربع عشرة مجموعة تختص كل منها ببحث قطاع معين من الدراسات الاستشرافية .

٣ — التوفر على موضوع معين من الدراسات العربية والاسلامية وقضاء العمر كله فى البحث والاستقصاء لاستيفاء شتى جوانبه . ولهذا نجد أن لديهم معرفة جيدة بكل ما ينشر عن الدراسات الاسلامية والعربية فى بلادنا العربية . ومكباتهم الخاصة والعامة عامرة بشتى المراجع العربية والاسلامية قديمها

وحديثها . وهناك حقيقة يعرفها كل من خالط المستشرقين وهي أن المستشرق المتمكن لا تأخذه العزة بالاثم اذا ما نبهته الى خطأ وقع فيه نتيجة لعدم فهمه لروح اللغة العربية .

٤ — دائرة المعارف الاسلامية — على ما لنا نحن المسلمين عليها من مآخذ — وتعد هذه الدائرة ثمرة من ثمار التعاون العلمى الدولى بين المستشرقين . وقد تم اصدارها فى طبعتها الاولى بالانجليزية والفرنسية والألمانية فى الفترة من عام ١٩١٣ الى عام ١٩٣٨م وقد ترجمت الى العربية حتى حرف العين . وقد أصدر المستشرقون طبعة جديدة أعيدت فيها كتابة المقالات بناء على ما صدر من بحوث حديثة وما نشر أو اكتشف من مخطوطات . وقد ظهرت هذه الطبعة الجديدة فى الفترة من عام ١٩٥٤ الى عام ١٩٧٧ . وقد أشار نجيب العتيقى الى أن اللجنة العربية لترجمة دائرة المعارف ترجع الآن الى الطبعة الجديدة ابتداء من حرف لعين بدلا من الرجوع الى الطبعة القديمة التى تقادمت بعض معلوماتها .

٥ — تاريخ الأدب العربى لبروكلمان (ت ١٩٥٦) وهو كتاب أساسى فى الدراسات العربية لا يستغنى عنه باحث فى الدراسات العربية ولاسلامية . وهذا الكتاب لا يقتصر على الأدب العربى وفقه اللغة ، بل يشمل كل ما كتب باللغة العربية من المدونات الاسلامية ، فهو سجل للمصنفات العربية المخطوط منها ، والمطبوع ، ويكتمل بمعلومات عن حياة المؤلفين . وقد صدر أولا فى مجلدين عام ١٨٩٨ وعام ١٩٠٢ ثم أتبعه المؤلف بثلاث مجلدات تكميلية كبيرة فى الفترة من ١٩٣٧ الى ١٩٤٢ ثم أعاد نشر المجلدين الأساسيين فى عام ١٩٤٣ وعام ١٩٤٩ فى طبعة أخرى معدلة ليتناسب تعديلها مع المجلدات الثلاثة التكميلية . وقد وافق المؤلف على طلب الجامعة العربية على ترجمة الكتاب

الى اللغة العربية . ولكن المشروع لازال للأسف يتعثر حتى الآن . ويقوم الباحث التركى المسلم « فؤاد سيزكين » ، تلميذ المستشرق الألمانى « هاموت ريتز » — بعد اكتشاف آلاف المخطوطات — يقوم باكمال عمل « بروكلمان » وذلك فى كتابه « التراث العربى » بالألمانية الذى ترجمه بعضه الى العربية ، ومنح عليه جائزة الملك فيصل منذ بضع سنوات . والحق يقال انه لولا كتاب بروكلمان لما كان كتاب « فؤاد سيزكين » .

٦ — جمع المخطوطات العربية من كل مكان وبشتى السبل ، والعمل على حفظها وصيانتها من التلف والعناية بها عناية فائقة ، وفهرستها فهرسة نافعة تصف المخطوط وصفا دقيقا ، وبذلك وضعت تحت تصرف الباحثين الراغبين فى مقر وجودها أو طلب تصويرها بلا روتين أو اجراءات معقدة . وقد قام مثلا « ألوارد » Ahlwardt بوضع فهرس للمخطوطات العربية فى مكتبة « برلين » فى عشرة مجلدات بلغ فيه الغاية فنا ودقة وشمولا ، وصدر هذا الفهرس فى نهاية القرن الماضى واشتمل على فهرس لنحو عشرة آلاف مخطوط . وقد قام المستشرقون فى كافة الجامعات والمكتبات الأوروبية بفهرسة المخطوطات العربية فهرسة دقيقة . وتقدر المخطوطات العربية الاسلامية فى مكتبات أوروبا بعشرات الآلاف بل قد يصل عددها الى مئات الآلاف .

وهنا أيضا كلمة حق يجب أن تقال وهى ان انتقال هذا العدد الهائل من المخطوطات الى أوروبا بوسائل شرعية أو غير شرعية قد هيا لها أحدث وسائل الحفظ والعناية الفائقة والفهرسة الدقيقة . وعندما أقول هذا أشعر بالأسى والحسرة لحال المخطوطات النادرة فى كثير من بلادنا العربية والاسلامية وما آل اليه حال الكثير منها من التلف والتآكل وصعوبة أو استحالة الاستفادة منها .

٧ — للمستشرقين باع طويل في مجال المعاجم . وأخص بالذكر هنا المعجم المفهرس لألفاظ الحديث الشريف . الذي يشمل كتب الحديث الستة المشهورة بالإضافة الى مسند الدارمي وموطأ مالك ومسند الامام أحمد بن حنبل ، وقد تم نشره في سبعة مجلدات في الفترة من عام ١٩٣٦ حتى عام ١٩٦١ . وتفيد منه كافة المعاهد والجامعات الاسلامية في العالم . وقد تعاون على اخراجه عدد من المستشرقين المعروفين . ونشير أيضا الى الجهد الذي بذله « أوجست فيشر » (ت ١٩٤٩) في معجم اللغة العربية القديمة مرتبا على المصادر . فقد قضى فيشر أربعين عاما في جمعه وتنسيقه وتعاون معه عدد من المستشرقين .

٨ — قام المستشرقون بنشر الكثير من أمهات كتب التراث . وقد عرفنا الكثير من هذا التراث محققا ومطبوعا على أيديهم . ولم يقتصر الأمر على نشر النصوص العربية بل قاموا أيضا بترجمة مئات الكتب العربية الاسلامية الى كافة اللغات الأوروبية .



(ب) الجوانب السلبية :

وبعد هذه النظرة التي ألقيناها على ما للمستشرقين من ايجابيات يحق لنا الآن أن ننبه الى الجوانب السلبية في تفكيرهم ودراساتهم . وتنصب النواحي السلبية بصفة أساسية على دراساتهم عن الاسلام وما يتصل به . وفيما يلي نعرض نماذج من هذه السلبيات :

١ — يعد الاستشراق أسلوبا خاصا في التفكير يبنى على تفرقة أساسية بين الشرق والغرب . « فالشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا » كما قال الشاعر الاستعماري المشهور « كبلنج » Kipling . فالغربيون عقليون محبون للسلام متحررون

منطقيون وقادرون على اكتساب قيم حقيقية ، أما الشرقيون
فليس لهم من ذلك كله شيء .

ولكن هناك حقيقة هامة يتجاهلها المستشرقون ببساطة ، وهي
أن الحضارة الغربية — التي يصفونها باعتزاز بأنها حضارة مسيحية —
مبنية في الأصل على تعاليم رجل شرقي وهو المسيح عليه السلام ،
وعلى ما نقلوه عن العرب من علوم عربية ومن تراث قديم تطور على
أيدى العرب . وهذه الحقيقة تجعل هذه التفرقة المبدئية الى شرق
وغرب والتي يعتمد عليها الاستشراق أمرا مخالفا للمنطق . فالمسيحية
دين شرقي ، والزعم بأن الغرب متقدم لأنه يدين بالمسيحية والشرق
متخلف لأنه يدين بالاسلام ، زعم لا أساس له من العلم ولا من
الواقع ، فالتقدم الذي يشهده الغرب اليوم في مجال العلم والتكنولوجيا
لا علاقة له بالمسيحية كدين ، والتخلف الذي يعاني منه الشرق لا يتحمل
الاسلام وزره . فهذا انتخلف يعد — كما يقول المرحوم « مالك بن
نبي » عقوبة مستحقة من الاسلام على المسلمين لتخليهم عنه لا لتمسكهم
به كما يزعم الزاعمون .

٢ — الاستشراق — من بين شتى العلوم الأخرى — لم يطور كثيرا
في أساليبه ومناهجه . وفي دراسته للاسلام لم يتخلص قط من
الخلفية الدينية للجدل اللاهوتي العقيم الذي انبثق منه
الاستشراق أساسا . ولم يتغير شيء من هذا الوضع حتى
اليوم باستثناء بعض الشواذ . وتخدم اليوم وسائل الاعلام
المتعددة في الغرب في تأكيد وتقوية الوضع التقليدي الذي
لا يزال ينظر الى الاسلام الى حد كبير بمنظار القرون الوسطى .
ولعل هذا هو مادعا السكرتير العام للمجلس الاسلامي الأوروبي
في شهر يناير ١٩٧٩ الى التنديد بوسائل الاعلام الغربية لموقفها
من الاسلام ، ووصفه لهذا الموقف بالاجحاف والافتراء على
حقائق الدين وتشويهها . وهذا كله يحدث على الرغم من أن

مجلس الفاتيكان قد أشاد في أكتوبر ١٩٦٥ بالحقائق التي جاء بها الاسلام والتي تنطلق بالله وقدرته ويسوع ومريم والأنبياء والمسيحين ، وعلى الرغم أيضا من قول المستشرق الألماني المعاصر « رودى بارت » : ان الدراسات الاستشرافية منذ منتصف القرن التاسع عشر تنحو نحو البحث عن الحقيقة الخالصة ولا تسعى الى نوايا جانبية غير صافية .

وللمستشرق الفرنسى المعاصر « رودنسون » وجهة نظر أخرى حيث يذهب الى القول بأن هناك ثورة في التفكير قد حدثت في التصورات الأوروبية للإسلام ، الأمر الذى جعل التقييم المسيحى لمحمد ﷺ مسألة حساسة . فلم يعد بإمكانهم الزعم انكاذب بأنه « محتال شيطانى » كما كان عليه الحال في العصور الوسطى . وفي الوقت الذى نجد فيه بعض المفكرين المسيحيين الذين يهتمون بالمشكلة يعلقون بالحكم بحذر ، فاننا نجد بعض الكاثوليك المتخصصين في الاسلام يعتبرون محمدا ﷺ « عبقرى دينيا » ، ويتساءل آخرون عما اذا كان في الامكان اعتباره بطريقة ما نبيا حقيقيا ما دام القديس توماس الاكوينى يقول بالنبوة التوجيهية التى لا تعنى بالضرورة العصمة والكمال . ومعنى هذا الكلام هو عدم الاعتراف بالنبوة الحقيقية للنبي ﷺ التى تعنى اصطفاء الهيا ووحيا سماويا وعصمة ربانية .

والواقع أنه ليس بالأمر الغريب أن يختلف المستشرقون معنا — نحن المسلمين — في الرأى حول الاسلام ، وانما الغريب أن يتفقوا معنا في الرأى . وذلك لأن منطلق تفكيرهم بالنسبة للإسلام ونبيه — يف — عن المنطلق الذى يصدر عنه تفكير المسلمين . ولهذا تختلف وجهات النظر بيننا وبينهم وستظل مختلفة فلا ننتظر منهم أن يتبنوا وجهة نظرنا التى تنظر الى الاسلام على أنه دين سماوى ختم به الله الرسالات السماوية وأن محمدا خاتم النبيين ، وأن القرآن وحى الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، لأنهم لو فعلوا ذلك

لأصبحوا مسلمين . وهذا ما حدث فعلا بالنسبة للبعض منهم ممن تحول الى الاسلام . وهذا التحول الى الاسلام يعنى فى الوقت نفسه التحول عن الخط الاستشراقى .

ونحن لا نطلب من كل مستشرق أن يغير معتقده ويعتقد ما نعتقد عندما يكذب عن الاسلام . ولكن هناك أليات بديهية يتطلبها المنهج العلمى السليم . فعندما أرفض وجهة نظر معينة لابد أن أبين للقارىء أولا وجهة النظر هذه من خلال فهم أصحابها لها ، ثم لى بعد ذلك أن أخالفها . وعلى هذا الأساس نقول : ان الكيان الإسلامى كله يقوم على أساس الايمان بالله ورسوله محمد ﷺ الذى تلقى القرآن وحيا من عند الله . ويجب على العالم النزيه والمؤرخ المحايد أن يقول ذلك لقرائه عندما يتعرض للحديث عن الاسلام حتى يستطيع القارىء أن يفهم سر قوة هذا الايمان فى تاريخ المسلمين ، ثم له بعد ذلك أن يخالف المسلمين فى معتقدهم وتصوراتهم . أما أن يعرض المستشرق الاسلام بادىء ذى بدء من خلال تصورات سابقة مبنية على خيالات وأوهام فهذا ما لا يقره علم ولا خلق . وهذا ما يجعلنا نقول — مع الدكتور حسين مؤنس — : ان محمدا الذى يصوره المستشرقون ليس هو محمد الذى نؤمن برسالته ، وانما هو شخص آخر من صنع خيالهم ، والاسلام الذى يعرضونه فى كتبهم ليس هو الاسلام الذى ندين به ، وانما هو اسلام من اختراعهم .

وهكذا يمكن القول بأن الاستشراق — فى دراسته للاسلام — ليس علما بأى مقياس علمى ، وانما هو عبارة عن ايديولوجية خاصة يراد من خلالها ترويض تصورات معينة عن الاسلام بصرف النظر عما اذا كانت هذه التصورات قائمة على حقائق أو مرتكزة على أوهام وافتراءات . وهذا يذكرنا بما كان يفعله السوفسطائيون قديما . فاذا وصفنا المستشرقين فى دراستهم للاسلام — الا بعض الشواذ منهم — اذا وصفناهم بأنهم السوفسطائيون الجدد فنحن

بذلك لم نتجن عليهم على الإطلاق . ولكن الانصاف يقتضينا أيضا أن نقول : أن الدراسات الاستشرافية كلما كانت بعيدة عن مجالات العقيدة الإسلامية كلما كانت أقرب إلى الموضوعية وأبعد عن التحامل .

٣ — يعمد المستشرقون إلى تطبيق المقاييس المسيحية على الدين الإسلامي وعلى نبيه . فالمسيح — في نظر المسيحيين — هو أساس العقيدة ، ولهذا تنسب المسيحية إليه . وقد طبق المستشرقون ذلك على الإسلام واعتبروا أن محمداً بمعنى بالنسبة للمسلمين ما يعنيه المسيح بالنسبة للمسيحية ، ولهذا أطلقوا على الإسلام — اسم « المذهب المحمدي Mohammedanism » ولكن هناك سببا آخر لاستخدام هذا الوصف لدى الكثيرين منهم وهو اعطاء الانطباع بأن الإسلام دين بشري من صنع محمد وليس من عند الله . أما نسبة المسيحية إلى المسيح فلا تعطى هذا الانطباع لديهم لاعتقادهم بأن المسيح ابن الله . وتتم مقارنة أخرى بين محمد والمسيح يكون المسيح فيها هو المقياس : فمحمد مزواج وشهوانى في مقابل المسيح العفيف الذى لم يتزوج ، ومحمد محارب وسياسى أما يسوع فهو مسالم مغلوب ومُعَذَّب يدعو إلى محبة الأعداء . وهكذا .

٤ — الخلط بين الإسلام كدين وتعاليم ثابتة في القرآن الكريم والسنة الصحيحة وبين الوضع المتردى للعالم الإسلامى في عالم اليوم . فإسلام الكتاب والسنة يعد في نظر مستشرق معاصر مثل كينسلنج اسلاما ميتا . أما الإسلام النحى الذى يجب الاهتمام به ودراسته فهو ذلك الإسلام المنتشر بين فرق الدراويش في مختلف الأقطار الإسلامية ، وهو تلك الممارسات السائدة في حياة المسلمين اليوم بصرف النظر عن اقترابها أو ابتعادها من الإسلام الأول .

٥ — التأكيد على أهمية الفرق المنشقة عن الاسلام كالبابية والبهائية والقاديانية والبكداشية وغيرها من فرق قديمة وحديثة ، وتعيق الخلاف بين السنة والشيعة . ودائما يعتبرون المنشقين أصحاب فكر ثورى تحررى عقلى ، ودائما يهتمون بكل غريب وشاذ ، ودائما يقيسون ما يرونه فى العالم الاسلامى على ما لديهم من قوالب ومصوبة جامدة . وقد اشار المستشرق رودنسون الى ذلك حين قال : « ولم ير المستشرقون فى الشرق الا ما كانوا يريدون رؤيته » فاهتموا كثيرا بالأشياء الصغيرة والغريبة ، ولم يكونوا يريدون أن يتطور الشرق ليبلغ المرحلة التى بلغتها أوروبا ، ومن ثم كانوا يكرهون النهضة فيه » .

٦ — يفتقد المرء الموضوعية فى كتابات معظم المستشرقين عن الدين الاسلامى فى حين أنهم عندما يكتبون عن ديانات وضعية مثل البوذية والهندوكية وغيرها يكونون موضوعيين فى عرضهم لها . فالاسلام فقط من بين كل الديانات التى ظهرت فى الشرق والغرب هو الذى يهاجم . والمسلمون فقط من بين الشرقيين جميعا هم الذين يودهمون بثتى الأوصاف الدنيئة . ويتساءل المرء : لماذا ؟ .

ولعل تفسير ذلك يعود الى أن الاسلام كان يمثل بالنسبة لأوروبا صدمة مستمرة . فقد كان الخوف من الاسلام هو القاعدة ، وحتى نهاية القرن السابع عشر كان « الخطر العثمانى » رابضا عند حدود أوروبا ويمثل — فى اعتقادهم — تهديدا مستمرا بالنسبة للمدنية المسيحية كلها .

ولهذا يمكن القول — كما يقول ادوارد سعيد — بأن الاستشراق من الناحية النفسية يعد صورة من صور جنون الاضطهاد . فالاسلام

اذن حتى في عصر ضعف أتباعه لا يزال يمثل تحدياً على كافة المستويات . فهل يعنى المسلمون هذه الحقيقة ؟ .

ومن هنا يمكن فهم ما يقوله « موير » Muir : « ان سيف محمد والقرآن هما اكثر الأعداء الذين عرفهم العالم حتى الآن عنادا ضد الحضارة والحرية الحقيقية » ، وما يزعمه فون جرونباوم من أن الاسلام ظاهرة فريدة لا مثيل لها في أى دين آخر أو حضارة أخرى . فهو دين غير انسانى وغير قادر على التطور والمعرفة الموضوعية . وهو دين غير أخلاقى وغير علمى واستبدادى .

وهكذا ينضح الحقد الدفين على الاسلام باستمرار يمثل هذه الافتراءات التى ليس لها فى سوق العام نصيب .

٧ — يعطى الاستشراق لنفسه فى دراسته للاسلام موقف ممثل الاتهام والقاضى . فبينما نجد مثلاً ان علم التاريخ يحاول أن يفهم فقط ولا يضع موضع الشك أسس المجتمع الذى يدرسه ، نجد الاستشراق يعطى لنفسه حق الحكم بل وحق الاتهام والرفض للأسس الاسلامية التى يقوم عليها المجتمع الاسلامى . وذلك ناتج عن نوايا مسبقة لا يمكن بحال من الأحوال أن تكون نوايا علمية صافية كما يدعى المستشرق رودى بارت .

٨ — تحالف فريق من المستشرقين مع الاستعمار الذى أذل العالم الاسلامى حقبة من الزمان فى العصر الحديث . ويقول المستشرق المعاصر « اشتيفان فيلد » بصدد الاشارة الى تلك الفئة من المستشرقين : « والأقبح من ذلك أنه توجد جماعة يسمون أنفسهم مستشرقين ، سخروا معلوماتهم عن الاسلام وتاريخه فى سبيل مكافحة الاسلام والمسلمين ، وهذا واقع مؤلم لابد أن يعترف به المستشرقون المخلصون لرسالتهم بكل دراحة » .

ومن بين الأمثلة العديدة في هذا الصدد نذكر المستشرق « كارل هينريش بيكر » (ت ١٩٣٣) مؤسس مجلة الاسلام الألمانية . فقد قام بدراسات تخدم الأهداف الاستعمارية الألمانية في افريقيا . أما « بارتولد » Barthold (ت ١٩٣٠) مؤسس مجلة Mir Islama الروسية فقد تم تكليفه عن طريق الحكومة الروسية بانقيام ببحوث تخدم مصالح السيادة الروسية في آسيا الوسطى . أما عالم الاسلاميات الهولندي الشهير « سنوك هورجرونيه » (ت ١٩٣٦) فقد لعب دورا هاما في تشكيل السياسة الثقافية والاستعمارية في المناطق الهولندية في الهند الشرقية ، وشغل مناصب قيادية في السلطة الاستعمارية الهولندية في اندونيسيا ، أما المستشرق الفرنسي المعروف ماسنيون فقد كان مستشارا لوزارة المستعمرات الفرنسية في شئون شمال افريقيا . وغير هؤلاء كثيرون وضعوا أنفسهم وعلمهم ودراساتهم في خدمة الاستعمار ضد الاسلام والمسلمين ،

٩ — الدعوة الى اصلاح الاسلام : يزعم المستشرقون أن الاسلام دين جامد ، وأنه لم يعد مسaira لروح العصر . ولذلك فهو في حاجة الى اصلاح جذري . وفي ذلك يقول أحد المستشرقين « ان على الاسلام اما ان يعتمد تغييرا جذريا فيه أو أن يتخلى عن مسيرة الحياة » . وهذه دعوة يوجهها الى المسلمين غريب عنهم بشأن ما ينبغى عليهم أن يفعلوه في دينهم . وهذا الاصلاح المزعوم يمثل محاولة من محاولات تغيير وجهة نظر المسلم عن الاسلام ، وجعل الاسلام اقرب الى المسيحية بقدر الامكان .

ولعله من نافلة القول أن نشير هنا الى أن الاسلام يشتمل على اصول لا يملك أحد أن يغير فيها شيئا وهي عقائد الاسلام الأساسية ، ويشتمل على فروع وهي قابلة للتغيير حسب المصلحة الاسلامية ، وأن الاصلاح الذي نفهمه نحن المسلمين هو اصلاح للفكر الاسلامي الذي هو في حاجة الى المراجعة المستمرة حتى يتلاءم مع متطلبات العصر وحاجات الأمة في اطار من التعاليم الاسلامية .

ولكن الدعوة الى اصلاح الاسلام او تحديثه كما يتال احيانا ليست بهذا المفهوم ، وانما هى عبارة عن تفريغ الاسلام من مضمونه وعزله كلية عن تنظيم أمور المجتمع ، وجعله مجرد تعاليم خلقية شأنه فى ذلك شأن الديانة المسيحية .

ويتورط البعض من ابناء المسلمين فى حمل لواء الدعوة الى اصلاح الاسلام كما يفهمها المستشرقون . ومن أحدث الكتب فى هذا الشأن كتاب صدر فى ألمانيا الغربية فى العام الماضى (١٩٨١) بعنوان أزمة الاسلام الحديث — مؤلف عربى مسلم يعمل أستاذًا فى جامعة فرانكفورت بألمانيا ، يدعو فيه بحماس الى الأخذ بالنموذج الغربى فى الاصلاح المتمثل فى جعل الدين مجرد تعاليم خلقية لا تكاليف الزامية ، فذلك فى نظره هو الحل الوحيد لأزمة الاسلام ، وبذلك يتم ابعاد الدين كلية عن التدخل فى شئون الحياة حسب النموذج العلمانى الغربى .

وهكذا نوفر نحن ابناء المسلمين على المستشرقين بذل الجهد فى هذا السبيل ، ونتولى نحن الدعوة الى تحقيق الأهداف التى عاشوا قرونا طويلة يعملون من أجلها دون جدوى .

٤ — موقفنا من الاستشراق :

والآن — وبعد أن اتضح لنا بعض الشئ أبعاد المواقف الاستشراقية بخيرها وشرها — لابد لنا من الحديث عن موقفنا — نحن المسلمين — من الاستشراق — وهذا يستدعينا أن نتذكر ما كان يفعله أسلافنا فى مثل هذه المواقف .

لقد كانت التيارات الفكرية الأجنبية القديمة — التى كانت تمثل تحديا للإسلام والفكر الإسلامى الأصيل فى عصور الاسلام الزاهرة — كانت حافزا للمسلمين فى تلك الأيام الخوالى للوقوف

أمامها بقوة وصلابة . وقد كانت المواجهة على مستوى التصدى بل تفوقه . فقد هضم الفكر الاسلامى تلك التيارات هضمًا دقيقًا واستوعبها استيعابًا تامًا ثم كانت له معها وقفته الصلبة وبنفس الأسلحة الفكرية . فالمواجهة اذن كانت مواجهة فكرية . وكان التاريخ الآن يعيد نفسه ، نالحرب الآن بين الاسلام والتيارات الماوية له حرب أفكار ، والمعركة معركة فكرية ، ولهذه المعركة أدواتها التى يجب التسلح بها ، فالخسران فى هذه المعركة أشد وطأة وأقوى تأثيرا وأعظم فتكا من خسارة أى معركة حربية أيا كان حجمها . لننظر مثلا نموذجا رائدا فى تاريخ الفكر الاسلامى . . . انه حجة الاسلام الغزالى الذى خاض غمار معارك فكرية عديدة وخرج منها جميعا منتصرا ، فماذا كان يفعل . يقول الغزالى فى كتابه (المنقذ من الضلال) : « انه لا يقف على فساد نوع من العلوم من لا يقف على منتهى ذلك العلم حتى يساوى أعلمهم من أهل ذلك العلم ، ثم يزيد عليه ويجاوز درجته فيطلع على ما لم يطلع عليه صاحب العلم . . . واذ ذاك يمكن أن يكون ما يدعيه من فساده حقا » .

وقياسا على ما يقوله الامام الغزالى نجد ان استيعاب الانتاج الاستشرافى حول الاسلام ودراسته دراسة عميقة هو الخطوة الأولى لنقده نقداً صحيحاً وإثبات ما يتضمنه من تهافت أو زيف ، الأمر الذى يجعل المستشرقين يفكرون ألف مرة قبل أن يكتبوا تحسبا لما قد يواجههم من نقد علمى يعريهم ويثبت زيف ادعاءاتهم . ويؤكد هذه الحقيقة المستشرق الفرنسى مكسيم رودنسون حين يشير الى أن هناك طريقا واحدا فقط لنقد المستشرقين . وهذا الطريق يسير عبر دراسة تفصيلية لمؤلفاتهم ، ويجب أن يرتبط نقدنا لانتاج المستشرقين بنقد ذاتى حقيقى بصفة مستمرة ، يجب أن نواجه أنفسنا بمواجهة حقيقية بعيوبنا وتصورنا وتقصيرنا ، وأن نكون على وعى حقيقى بالمشكلات التى تواجهنا فى هذا العالم المعاصر .

وقد يتمثل الجانب الايجابي للاستشراق في صورة الهجوم علينا وعلى أجدادنا وليس في صورة المدح ، وكلنا نعلم أن هناك عددا لا بأس به من المستشرقين قد مدحوا حضارتنا في مؤلفاتهم وأثنوا على علمائنا ومجدوا تراثنا ، وآخرهم المستشرقة الألمانية المعاصرة زيجريد هونكه في كتابها (شمس الله تسطع على الغرب) . ولكن جانب المدح والثناء قد يكون له تأثير تخديري علينا ، فيجعلنا نغمض عيوننا مستسلمين لتلك الأحلام السعيدة التي تذكرنا بالعز الذي كان ، ونركن الى ذلك ونعيش على صيت آبائنا وأجدادنا ، ونظن أننا عظماء لأن أجدادنا كانوا عظماء ، ورحم الله جمال الدين الأفغانى الذى كان يقول :

« ان المسلمين أصبحوا كلما قال لهم الانسان : كونوا بنى آدم ، اجابوه ان آباءنا كانوا كذا وكذا وعاشوا في خيال ما فعل آباؤهم غير مفكرين بأن ما كان عليه آباؤهم من الرفعة لا ينفى ما هم عليه من الخمول والضعفة . ان الشرقيين كلما أرادوا الاعتذار عما هم فيه من الخمول الحاضر قالوا : أفلا ترون كيف كان آباؤنا ؟ نعم قد كان آباؤكم رجالا . ولكنكم أنتم أولاء كما كنتم ، فلا يليق بكم أن تتذكروا مفاخر آباؤكم الا أن تفعلوا فعلهم » .

ومن هنا نقول ان الجانب الهجومى التنفيذى الاستفزازى فى انتاج المستشرقين قد يكون بالنسبة لنا خيرا من جانب المدح تأكيداً للمثل المعروف « رب ضارة نافعة » ، فقد يكون هذا الاستفزاز حافزا لنا لنخرج من حالة الركود الفكرى التى وصلنا اليها لننطلق من جديد ، فننهض بنى أفكارنا من جديد ونعيد ترتيب صرح ثقافتنا ، وبذلك نقبل التحدى ونستجيب له فننهض من كبوتنا . ولعل هذا ينطبق على تفسير توينبى للحضارة بأنها استجابة للتحدى بمعنى أنها رد معين يواجه به شعب من الشعوب تحديا معنا .

وهذا الرد ليس مجرد استنفاد الطاقات فى رد الهجوم وترقب

الطعنات للرد عليها ، وإنما هو الرد الفعال الذى ينتقل الى الموقف الأقوى . فلا يجوز أن نقف دائما موقف المعتدى عليه ، فالمعتدى عليه غالبا ما يكون ضعيفا . ولهذا لابد من أن نغير وضعنا ، وذلك لن يكون الا بتغيير أفكارنا ، فنحن لسنا متخافين لقلة أشيائنا ، ولكن تخلفنا لقلة أفكارنا وتبدد جهودنا ، ولن تتغير أحوالنا الا بتغيير ما فى نفوسنا « ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » (١) .

ولابد لنا من أن نعترف بأن الاستشراق يستمد قوته من ضعفنا ، ووجوده نفسه مشروط بعجز العالم الإسلامى عن معرفة ذاته . فالاستشراق فى حد ذاته كان دليل وصاية فكرية . . ويوم أن يعى العالم الإسلامى ذاته وينهض من عجزه ويلقى من على كاهله أثقال التخلف الفكرى والحضارى — يومها سيجد الاستشراق نفسه فى أزمة ، وخاصة الاستشراق المشتغل بالإسلام ، ويومها لن يجد الجمهور الذى يخاطبه لا فى أوروبا ولا فى العالم الإسلامى . ولكى نكون أكثر وضوحا وأكثر تحديدا فى تصوير ما ينبغى علينا أن نقوم به لمواجهة الاستشراق نذكر فيما يلى بعض النقاط التى نعتقد أنها أمور أساسية فى هذا المجال :

(١) علينا أن ننظر الى حركة الاستشراق بكل جدية ، ونأخذ فى حسابنا أن لها آثارا عظيمة على قطاعات عريضة من المثقفين فى العالم الإسلامى وفى العالم الغربى على السواء . ولهذا لابد من التوفر على دراسة الاستشراق دراسة عميقة . وليس يكفى أن نقول أن ما يكتبونه كلام فارغ . فهذا الكلام الفارغ مكتوب بشتى اللغات الحية ومنتشر انتشارا واسعا على مستوى عالمى . ومواجهته لابد أن تكون على نفس المستوى العالمى . وبالكلام المليان على حد تعبير الدكتور حسين مؤنس .

(١) الرد : ١١ .

(٢) بدلا من أن نظل نقنات فكريا من دائرة المعارف الاسلامية التي قام باعدادها المستشرقون قبل الحرب العالمية الثانية والتي تجاوزوها هم وانتهوا منذ بضع سنوات من اصدار دائرة معارف اسلامية جديدة — علينا أن نقوم نحن المسلمين باصدار دائرة معارف اسلامية باللغة العربية واللغات الأوروبية الرئيسية تقف على الأتلى فى مستوى دائرة المعارف الاسلامية للمستشرقين تخطيطا وتنظيما وتتفوق عليها علميا ، وتنقل وجهة النظر الاسلامية فى شتى فروع الدراسات الاسلامية والعربية الى المسلمين وغير المسلمين على السواء .

فكل فراغ فكري لدينا لا نشغله بأفكار من عندنا بكن عرضة للاستجابة لأفكار منافية وربما معادية لأفكارنا ، فلا نلومن عندئذ الا انفسنا .

(٣) علينا أن نحدد جهودنا فى العالم الاسلامى لاقامة مؤسسة اسلامية علمية عالمية لا تنتمى بالولاء الى بلد اسلامى معين ولا لمذهب سياسى أو فكري أو دينى معين ، بل يكون ولاؤها الأول والأخير لله وحده ولرسوله محمد ﷺ ، وتستطيع استقطاب الكفاءات العلمية الاسلامية فى شتى أنحاء العالم ، وتقف على قدم المساواة مع الحركة الاستشراقية ويكون لها دوريات ومجلات علمية ذات مستوى رفيع تنشر بحوثها بلغات مختلفة ، وتعمل على استعادة ايماننا الفكرية واستقلالنا فى ميدان الأفكار ، فهذا هو الطريق الصحيح الى الاستقلال الاقتصادى والسياسى ، اذ أن المجتمع الذى لا يصنع افكاره الرئيسية لا يمكنه على أية حال أن يصنع المنتجات الضرورية لاستهلاكه ولا المنتجات الضرورية لتصنيعه .

والأمر الذى يؤسف له حقا هو أننا على امتداد العالم الاسلامى يسكانه الذين تجاوزوا الألف مليون وبكل ما لنا من امكانات هائلة

لا نملك مؤسسة علمية دولية لها نفس الامكانيات العلمية والمادية
التي تملكها المؤسسة الاستشرافية . أليس هذا من الأمور التي
تدعو الى الأسى والحسرة ؟ .

(٤) لابد أن تكون لنا مؤسسة تبشيرية عالمية ، واعنى بذلك
جهازا للدعوة الاسلامية في الخارج يدعو للإسلام من ناحية
ويرعى المسلمين الجدد من ناحية ثانية ويحمى المسلمين
بالوراثة من ناحية ثالثة . ولابد من اصدار كتب اسلامية
باللغات العالمية الحية تصحيح التصورات الخاطئة عن
الاسلام في الأذهان وتعرض الاسلام بأسلوب علمي يتناسب
مع العقلية المعاصرة ، وتقدم الطول الاسلامية لمشكلات
المسلمين العصرية .

(٥) لابد من اعداد ترجمة مقبولة لمعاني القرآن باللغات الحية
نسد بها الطريق على عشرات الترجمات المنتشرة الآن بثتى
اللغات والتي قام باعدادها المستشرقون وصدورها في غالب
الأحيان بمقدمات مملوءة بالطعن على الاسلام . ولابد أيضا
من اختيار مجموعة كافية ومناسبة من الأحاديث النبوية
الدسيحة وترجمتها أيضا لتكون مع ترجمة معاني القرآن في
متناول المسلمين غير الناطقين بالعربية وفي متناول غير
المسلمين الذين يريدون فهم الاسلام من منابعه الأصلية .

(٦) العمل على تنقية التراث الاسلامى حتى يكون غذاء فكريا
صالحا للمسلم . فتراثنا فيه الفث وفيه السمين . ومع أن
الاسلام لا يتحمل وزر الخرافات والأوهام والاسرائيليات التي
تشتمل عليها بعض كتب التراث لدينا ، فان المستشرقين
يستخدمون هذا التراث بكل ما فيه . ويكفى أن نشير في
هذا الصدد الى مثال واحد وهو قصة الفرائيق المذكورة في

كتبنا والتي ركز عليها المستشرقون ، فاذا اتهمناهم بالتجنى
حق لهم أن يردوا الاتهام ويقولوا : نحن لم نخترع شيئا من
عنديانا . أليست القدمة واردة في مصادركم المعتمدة ؟ .

(٧) محاولة اقتحام مجالات تدريس العلوم العربية والاسلامية
في الخارج عن طريق الاتفاقات الثقافية التي تعقد بين بلدان
العالم الاسلامى ودول أوروبا وأمريكا ، وذلك بإرسال أساتذة
أكفاء من الأقطار الاسلامية الى معازل الاستشراق للتدريس
فيها . وبذلك يمكن بالتدريج تصحيح التصورات الأوروبية عن
الاسلام بالعمل العلمى الدعوى وليس عن طريق الشعارات
فقط . واعتقد أن هناك الآن جامعات في أوروبا وأمريكا لديها
الاستعداد للاستجابة لذلك .

● ايها الاخوة الأعزاء :

لقد حاولنا بها عرضناه على مسامعكم في هذه المحاضرة من نقاط
أن نكون منصفين لأنفسنا ولغيرنا ، وأن نكون موضوعيين نرى
الأسود أسود والأبيض أبيض حتى لا تختلط علينا الرؤية فنخطئ
الطريق الصحيح الى فهم أبعاد المشكلة .. وليس ما قلناه عن الاسلام
والاستشراق هو نهاية المطاف . وانما هى مجرد ملاحظات نقصد
من ورائها الدعوة الى التأمل والتفكير في أبعاد هذه المشكلة المطروحة .

وأرجو أن اكون قد وفقت الى الصواب ، ، والله من وراء القصد
وهو حسبنا ونعم الوكيل .

مراجع البحث

- ١ - تراث الاسلام - القسم الأول - تصنيف شاخت وبوزورث .
ترجمة د. محمد زهير السهوري (سلسلة عالم المعرفة
بالكويت - رمضان ١٣٩٨ - أغسطس ١٩٧٨) .
- ٢ - الدراسات العربية والاسلامية في الجامعات الألمانية . تأليف
رودي بارت . ترجمة د. مصطفى ماهر . دار الكاتب العربي
للطباعة والنشر بالقاهرة ١٩٦٧ .
- ٣ - نظرة الغرب الى الاسلام في القرون الوسطى تأليف ر. و .
سذرن . تعريب د. علي فهمي خشيم ، د. صلاح الدين
حسن . دار مكتبة الفكر طرابلس - ليبيا ١٩٧٥ .
- ٤ - الفكر الاسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي للدكتور
محمد البني - دار الفكر بيروت ١٩٧٣ .
- ٥ - انتاج المستشرقين واثره في الفكر الاسلامي الحديث . تأليف
مالك بن نبى . مكتبة عمار بالقاهرة ١٩٧٠ .
- ٦ - أوروبا والاسلام - تأليف هشام جعيط ، ترجمة د. طلال
عتريسي . دار الحقيقة . بيروت ١٩٨٠ .
- ٧ - المستشرقون - في ٣ أجزاء - تأليف نجيب العتيقي . الطبعة
الرابعة . دار المعارف بالقاهرة ١٩٨٠ / ١٩٨١ .
- ٨ - الاسلام في الفكر الغربي - للدكتور محمود حمدي زقزوق .
دار القلم بالكويت ١٩٨١ .
- ٩ - Gustav Pfannmueller : Handbuch der Islam literature,
Berlin 1923.
- ١٠ - Edward W. Said Orientalismus, Frankfurt/M. 1981.
- ١١ - C.E. Bosworth : Orientalism and Orientalists (in :
Arab Islamic Bibliography), 1971 Great Britain.

محتويات الكتاب

الصفحة

١ — تمهيد	٣
٢ — تاريخ الاستشراق وتطوره	٤
٣ — مواقف المستشرقين	١٣
(أ) الجوانب الايجابية	١٤
(ب) الجوانب السلبية	١٨
٤ — موقفنا من الاستشراق	٢٦
مراجع البحث	٣٣
محتويات الكتاب	٣٥

رقم الايداع ٨٤/٢٩٢٧

الترقيم الدولي x - ٠٢٨ - ٣٠٧ - ٩٧٧